

الأدب المقارن... آلية لفهم الأدب المعاصر

العماري أمحمد

جامعة سعد دحلب- البليدة- الجزائر.

يعد مصطلح "الأدب المقارن" من المصطلحات العربية التي اختلف النقاد في مسألة تبنيه من بين المصطلحات الأخرى كمصطلحي "التاريخ الأدبي المقارن" و"الآداب المقارنة"، رغم أنها كلها تشير إلى المصطلح الأجنبي "**Comparative littérature**"، وعلى أن دلالة هذا المصطلح الأجنبي بالضبط هي التاريخ المقارن للأدب إلا أن جمهور النقاد العرب يفضلون استعمال مصطلح "الأدب المقارن" لما يتميز به من إيجاز واختصار في إطلاقه على هذا العلم الذي ظهر عن طريق احتكاك الغربيين بعلوم أخرى كعلم الأديان المقارن، و علم القانون المقارن، ونقصد به الأدب المقارن ولكن هذا لا يعني أن الأدب المقارن هو نوع من الأدب و جنس جديد ظهر في الأدب يسمى بالمقارن، ولكن يعني دراسة نقدية مقارنة.

وعلى الرغم من اختلاف المصطلحات العربية التي تقابل المصطلح الغربي "**Comparative littérature**" إلا أننا نرى هناك أهمية قصوى في استعمال مصطلح موحد، ذلك أن المصطلحات هي مفاتيح العلوم، وهي الكفيلة بالكشف المفهومي لما تعنيه العلوم وهو ما يذهب إليه المسدي حين قال: إن السجل الاصطلاحي في كل فرع من العلوم هو الكشف المفهومي الذي يقيم للمعرفة النوعية سياقها المنطقي بحيث يغدو الجهاز المصطلحي لكل ضرب من العلوم صورة مطابقة لبنية قياساته متى اضطرب نسقها اختل نظامها وفسد باختلالها تركيبه فتهاافت بفعل ذلك أنسجته.¹

وهذا السبب في رأي كاف لأن يدفع النقاد نحو ضرورة التوحيد الاصطلاحي و على هذا الأساس سأستخدم مصطلح واحد في هذا المقال، وهو مصطلح الأدب المقارن،

¹ - عبد السلام المسدي، المصطلح النقدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس، 1994، ص 11.

العماري أمحمد

وهو في الحقيقة مصطلح متداول بكثرة في السنوات الأخيرة بينما يقل استخدام المصطلحات الأخرى مثل مصطلح الآداب المقارنة. وبداية رأي أنه من الضروري تحديد مدلول مصطلح الأدب المقارن ثم تحديد مفهومه كدراسة نقدية تقاسمت روافدها منذ نشأتها المدرسة الفرنسية و المدرسة الأمريكية.

الأدب المقارن: المصطلح و المفهوم:

إنّ الحديث عن مصطلح الأدب المقارن سيجرنا بداية إلى البحث عن دلالة كل لفظ من لفظية الذين تشكل منهما و لفظ الأدب يشير منذ القدم إلى كل كلام يصنف ضمن دائرتي الشعر أو النثر، أما مصطلح المقارن فيشير إلى نوع من المقابلات بين الأشياء، و بتركيب المصطلحين مع بعضهما البعض يتشكل الأدب المقارن، (و هو مصطلح مشينا و ضروريا في الوقت نفسه، مثله في ذلك مثل " التاريخ الأدبي" و"الاقتصاد السياسي")⁽²⁾

فمصطلح الأدب المقارن مشين لأنه غير واضح في إشارته إلى دراسة معينة لا إلى نوع أدبي معين، أما ضرورة استعماله تنبثق من خلال تداوله المكثف بين جمهور النقاد. ثم إن الأدب المقارن هو نوع من الدراسات الشبيهة بالموازنة تهدف إلى تطوير الأدب وإفادة الآداب من بعضها البعض، إن "الأدب المقارن تمرين أكاديمي أقل خطرا و شبيه بالموازنات، و كان أولا وسيلة مدرسية لتقويم أصالة كل أدب، واستحق عند ذلك لقب "دراسة مقارنة للآداب الوطنية"، وأخذ ايتامل هذا المصطلح أفضل. بالتأكيد، إن مقارنة الآداب لا تعني القيام بالأدب المقارن."⁽³⁾

وهنا نقصد المقارنة بين الآداب التي تكون لغتها مختلفة سواء أكانت تنتمي إلى نفس العصر أم تنتمي إلى عصور متباعدة، فالإفادة من أدب في أدب لا يقتضي

(2) - ينظر: بيير برونيل كلود بيشوا، أندريه ميشيل روسو، ما الأدب المقارن؟، تر: عنسان السيد، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ص 15 ط: 1996.

(3) - المرجع نفسه، ص 16.

(1) - سعيد الوكيل، الأدب المقارن، محاضرات كلية الأدب. (د.ت)، جامعة القاهرة 2000، ص 09.

(2) - من هؤلاء النقاد نذكر: فان تيجم، محمد وزان عدنان، رونييه وليك...

الأدب المقارن... آلية لفهم الأدب المعاصر

تعاصرهما بين يمكن أن يكون الأدبين من عصرين مختلفين حتى يكون هناك تأثير و تأثر وفي هذا الإطار يقول سعيد الوكيل: "الأدب المقارن علم يدرس العلاقة

بين الآداب التي تنتهي إلى لغات مختلفة، سواء أكانت هذه الآداب متعاصرة أم من عصور مختلفة، و يدرس التأثير والتأثر بين تلك الآداب على مستويات مختلفة، مثل الأصول الفنية للأجناس و المذاهب الأدبية."⁽¹⁾

أما عن مفهوم "الأدب المقارن" في الدراسات النقدية العربية اليوم فهو مستورد من الثقافة الغربية إذ إن أول ظهور لهذا المصطلح كان بأوروبا غير أن هناك خلاف بين المؤرخين و النقاد⁽²⁾ حول أول من استخدم هذا المصطلح وكذا التاريخ الدقيق لسنة أول استعماله حيث يرى بعض النقاد المحدثين أن أول من بشر بظهور هذا المصطلح (الأدب المقارن) هو الباحث الفرنسي "أبيل فرانسوا فيلمان"، عندما استخدمه كعنوان لبعض محاضراته التي كان يلقيها بجامعة السربون سنة 1827، ثم وضعه كعناوين لبعض مؤلفاته انطلاقاً من سنة 1840، في حين يرى ميجان الرويلي وسعد البازعي أن مصطلح "المقارن" مقتبس من العلوم الأخرى حيث ظهر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ما يسمى بـ "علم القانون المقارن" و "علم الأديان المقارن" و "علم اللغة المقارن"... وهذا نتيجة ظهور مفهوم النسبية بأوروبا حيث يؤكد مفهومها أنه لا يمكن فهم الظواهر فهما سليماً إلا بعد وضعها في إطار النسبية، ولما تسربت الروح العلمية إلى الظواهر الأدبية في دول أوروبا كان من الضروري إخضاعها لهذا التيار الفكري كما جرى الأمر بالنسبة للدراسات الأخرى وكان من الطبيعي أن تتجه الدراسات الأدبية إلى تطبيق فكرة النسبية على الأدب، مما أدى إلى دفع النقاد و الدارسين نحو البحث عن الصلات بين الظواهر الأدبية و هو ما يعد الجذور الأولى لظهور الأدب المقارن بأوروبا و من دلائل ذلك الحدث أن ألف الفرنسيان "أبيل فيلمان" و "جان جاك أمبير" كتاباً في تاريخ الأدب.

(1) - من هؤلاء النقاد نذكر: فان تيجم، محمد وزان عدنان، رونية وليك...

العماري أمحمد

حمل بحثا عن الروابط و التأثيرات بين الآداب الأوروبية و مع هذا فان كل من "الرويلي و البازغي" يريان أن ذلك الجهد لم يأخذ بعده المؤسسي أو الأكاديمي إلا في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر حيث أنشئت كراس للآدب المقارن في الجامعات الأمريكية ثم استمر ظهور ذلك الكراس مع الجامعات الفرنسية والنيوزيلندية وفي سنة 1900 كتب الفرنسي "فرديناند برونستير" متحدثا عن أهداف دراسة الآدب المقارن، ومع هذا فنحن نتفق مع هذا الطرح متحفظين على أن ظهور مصطلح الآدب المقارن لم يكن بأمريكا أو دونها من الدول الأخرى؟.

(*) من المصطلحات الأخرى نذكر: التاريخ الأدبي المقارن، الآداب المقارنة، التاريخ المقارن للآداب...

أ- مفهوم الآدب المقارن "comparative literature":

بطبيعة الحال لا يعني مصطلح "الآدب المقارن" ظهور جنس جديد في الآدب سمي بالمقارن، و لكن يعني دراسة نقدية مقارنة وما وضع هذا المصطلح على هذا النحو إلا اختصارا وإيجازا كما هو موجود في تراثنا العربي مثل كتاب "المقدمة" لابن خلدون فهل يحمل ذلك المؤلف الضخم مقدمة فقط؟ أو هل هو نوع من المقدمات؟ إذن يجب أن نضع نصب أعيننا أن مصطلح "الآدب المقارن" هو من باب التسمية الموجزة التي تحيل على علم كامل قائم بذاته ظهر لدراسة الآدب بوجهة نظر جديدة و هذا حتى نستطيع استيعاب مختلف المفاهيم التي جاء بها دراسيو الآدب المقارن.

يعد تاريخ الآداب و التاريخ الأدبي من القضايا التي شغلت بها الدراسات النقدية على وجه العموم وهما حقلان معرفيان احتواهما الآدب المقارن بعد ظهوره و هو ما يفسر بعض أسباب إدراج إشكالات التاريخ الأدبي في حقل الآدب المقارن كما بوسع هذه الملاحظة أن تقدم جزء من تعريف هذا الأخير، فمفهوم الآدب المقارن يعني فيما يعنيه حركة الآداب في عصور مختلفة فهو علم يدرس العلاقة بين الآداب التي تنتهي إلى مختلف الثقافات و المكتوبة بلغات مختلفة، سواء أكانت تلك الآداب من عصور واحد أم من عصور مختلفة كما يدرس الآدب المقارن قضايا تأثر أو تأثير أدب معين على آخر

الأدب المقارن... آلية لفهم الأدب المعاصر

وهذا في جميع مستويات التأثير كمثل الموضوعات، المواقف، الشخصيات أو التشابه في الصيغ الفنية أو الأفكار أو التأثير بأصل فني معين أو غيرها من المستويات وبالتالي فإن أي دراسة تهتم بمظهر تشابه بين أدبين تدخل في حقل الأدب المقارن، لكن تجب الإشارة إلى أن دراسات الأدب المقارن عند المدرسة الفرنسية مختلفة بعض الشيء عن المدرسة الأمريكية، لأن المدرسة لا تشترط عنصر التزامن بين أدبين لدراستهما دراسة مقارنة في حين تجعل المدرسة الفرنسية قضية التزامن عنصرا رئيسيا بين أدبين مختلفين لدراستهما دراسة مقارنة إلا أن كل من المدرستين متفقتين على ضرورة أن يكون الأدبين من ثقافتين مختلفتين وحتى يتضح هذا الأمر أكثر فإليك المثال التالي: دراسة صورة المحبوبة في شعر جميل بن معمر و شعراء التروبادور تعده المدرسة الأمريكية دراسة مقارنة بينما ترفض المدرسة الفرنسية إدراج من هذه الدراسة في حقل الأدب المقارن مرجعة السبب إلى تباعد عصر جميل بن معمر وعصر شعراء التروبادور والذي لا يعد شرطاً عند المدرسة الأمريكية.

و مثلا أيضا دراسة الطبع التشاومي عند الشاعر الانجليزي "ملتون" و الشاعر العربي "أبي العلاء المعري" برغم أن كليهما كان أعشى و انعكس ذلك على إبداعه إلى أن المدرسة الفرنسية ترفض إدراج هذه الدراسة في الأدب المقارن و هذا لأنه حسب رأيها قد عاش "ملتون" بين (1606-1674م) في حين عاش "المعري" ما بين (973-1057م) لكن المدرسة الأمريكية تعتبر تلك الدراسة من اختصاص الأدب المقارن.

إن الاختلاف بين المدرسة الفرنسية و الأمريكية حول الأبحاث و الدراسات التي يمكن إدراجها أو نفيها عن حقل الأدب المقارن من الأسباب التي من شأنها الإقلال من مشروعية البحث المقارن، إذ يتحول الباحث إلى محقق جنائي يترصد الأدلة التي تثبت أو تنفي وجود علاقة بين أدبين و هو ما يقلص من مردودية تلك الدراسات المقارنة لأن عمليات الإبداع معقدة جدا. و مع ذلك فإن بعض النقاد من يرى ضرورة الاستفادة من المدرستين (الفرنسية، الأمريكية)، فلكل مدرسة حجتها و أساسها النظري المستمد من جذور الدراسات النقدية عندها. و بهذا فإنه يمكن القول أن للأدب المقارن بعض

العماري أمحمد

الممارسات التقييمية أو الوصفية في التراث الغربي، فهل يمكننا أن نجد بعض العمليات النقدية في التراث العربي مما له علاقة بالأدب المقارن أيضا؟

- مظاهر مقاربة للأدب المقارن في التراث العربي النقدي:

لم يعرف العرب قديما الأدب المقارن بمفهومه المصطلحي المتداول اليوم ولكن كانت هناك بذور تشابه أشكال الدراسات المقارنة المعروفة اليوم وهو ما ورد في أمهات الكتب كمؤلف "البيان والتبيين" للجاحظ وكتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمعي وغيرهما حيث تبرز هذه المؤلفات بعض المفاضلات والموازنات بين الشعراء والخطباء التي لم تخرج عن إطارها البيئي والاجتماعي الضيق كما كانت مرتكزة أساسا على الانطباعات الشخصية وفتقر إلى التحليل الموضوعي والعلمي، فمثلا نجد الموازنة التي قام بها الآمدي بين أبي تمام والبحتري لا تخرج عن محيط الأدب الواحد وهو الأدب العربي رغم أن كتابه (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) يحاول فحص النتاج الشعري والرؤية الشعرية عند كل منهما بمنهج نقدي سليم بيد أنها لا تدخل ضمن حقل الأدب المقارن باعتبار أن الدراسة منحصرة في الثقافة العربية ولغتها الواحدة فقط.

لقد سمت العرب كل الموازنات و المفاضلات التي سادت في العصر الجاهلي بالنقد و سموه أيضا بالترجيح، وقد كان التمييز بين متشابهين من فن واحد و ترجيح احدهما على الآخر في غاية الصعوبة ورغم ذلك فقد نحا النقد آنذاك منحنى تصنيف الكتاب و الشعراء إلى طبقات و قد تضاربت آراءهم في ذلك، بحيث لا نكاد نجد إجماعا إلا فيما يتعلق بالحكم على امرئ القيس باعتباره أول من سن سنة الوقوف على الأطلال و هذا بسبب أن المقاييس كانت مختلفة تركز على الدوق. إن شيوع هذه الدراسات في ذلك العصر وغياب الدراسات التي تجعل حقلها نصا عربيا وآخر أجنبيا هو ما يؤكد الرأي القائل أن العرب قديما لم يعرفوا الأدب المقارن بمفهومه الحالي. وبرغم تحسن الجوانب الفنية للقصيدة العربية من خلال تلك الدراسات النقدية وهي مباحث تقف عندها بعض الدراسات المقارنة اليوم لكنها أيضا ليست دراسات مقارنة باعتبار أن حقل الدراسة مختلف أي المنطلق في الدراسة ليس واحدا وإن كانت النتيجة واحدة. أما في صدر الإسلام و مع انفتاح المجتمع العربي على العالم من خلال نشر

الأدب المقارن... آلية لفهم الأدب المعاصر

الدعوة المحمدية ظهرت بذلك أحكاماً نقدية جديدة تضاف إلى أحكام النقاد في العصر الجاهلي في الموازنة و المفاضلة بين أجناس الأدب ولعل توجه الذوق العربي نحو اللين والرفق قد أثرت في الحكم على الشعراء والأدباء، وهذا من خلال الإفادة من أعظم ناقد في ذلك العصر ألا وهو رسول الله "محمد صلى الله عليه وسلم" حيث وجه النقد وجهة دينية أخلاقية. أما في العصر الأموي فقد توجت حركة النقد ببعض الاعتماد على منهج واضح في مختلف الموازنات و المفاضلات لكن مع بداية العصر العباسي بدأ تظهر روح المقارنة كبدايات فعلية نتاج تخطي الحدود المحلية الضيقة في الإنتاجات الأدبية وكان ذلك بفعل الترجمة عن اليونانية و خاصة ما تعلق بجانب الفلسفة لان العرب ظنت أنها في غنى عن قصائد العالم و اكتفت دواوينها و معلقاتها ناهيك عن أنهم كانوا يرون أن ما في الشعر اليوناني خصائص قد تحرف رؤيتهم الشعرية في نظم قصائدهم و هي نظرة سلبية سادت لمدة طويلة من الزمن، و خاصة أن الشعر اليوناني كان محملاً بالأساطير و الخرافات التي تتنافى مع الروح الإسلامية و الاعتقادات الدينية، ففضل العرب آنذاك أدبهم عن باقي آداب العالم و مع ذلك فقد فضل الجاحظ وصف الآداب وتصنيفها في كتابه "البيان و التبیین".

ب-نشأة علم الأدب المقارن:

بعد حديثنا الذي تناول الأدب المقارن من الناحية الاصطلاحية أي تحديد دلالة الاصطلاحية، ننتقل إلى الحديث عن الأدب المقارن باعتباره علماً قائماً بذاته له ماله من التعريفات التي تجتمع تارة وتباين تارة أخرى وهذا بعدما نشير إلى بدايات وأسباب نشوءه مع الإشارة إلى أهم رواده وتبيان المنابر الدراسية والمجالات والأعمال البيبلوغرافية والجمعيات الوطنية التي أسهمت في الاهتمام بالدراسات المقارنة.

ـ الأدب المقارن تطبيقاً وتنظيراً:

لقد ظهر الأدب المقارن منذ عصور قديمة في أشكال متعددة قبل أن تعرف الدراسات الأدبية هذا العلم بصورته الحالية المعروفة بين المتخصصين من المنظرين له. كما يمكن التدليل على بذور نشأة علم الأدب المقارن منذ أن وجد الميل إلى الموازنة والمقارنة بين الآداب لتقرير مزايا كل أدب و من ذلك على سبيل المثال نذكر الدراسات

العماري أمحمد

الأدبية المقارنة البابلية و الهيلينية و التي كانت تعني بالموازنة بين أدب الأساطير والمعتقدات و الديانات و أدب الشعر الحماسي والقبلي ومن الأمثلة الأخرى في الدراسات المقارنة التي كان يقوم بها الأدباء و النقاد في العصور القديمة ما نجده من مقارنات أدبية بين الأدب اليوناني و الأدب الروماني و التي كان يقوم بها النقاد أمثال ماكروسيبيس **macrobius** و جليسي **gellius** لكن الأدب المقارن كعلم لم يظهر إلا في القرن التاسع عشر كما أشرنا إلى ذلك في المحاضرة السابقة حيث ظهر بأوروبا وازع التعمق في الدراسات النظرية والعلمية والمثابرة نحو تحري الحقائق وفق أسس منهجية ثابتة و التي ساعدت في مجموعها على ظهور بعض التعريفات و المفاهيم المحددة للأدب المقارن كمادة علمية و التي كانت في مجملها مثار خلاف كبير بين بعض النقاد، حيث يرى بعض النقاد أنّ بعد سقوط النظم السياسية في فرنسا قام "جون جاك" سنة 1832م بانتقاد العصبية أو القومية الأدبية و نادى بمبادئ عالمية الأدب و ذلك عندما اصدر كتابا بعنوان "تاريخ المقارن للفنون و الأدب لدى كافة الشعوب " في حين يرى البعض الآخر من النقاد أن المحاضرات التي كان يلقيها الأستاذ فيلمان سنة 1827 بجامعة السربون هي التأسيس الأول لعلم الأدب المقارن ثم اكتمل مفهوم هذا العلم على يد "جوزيف تكست" حيث ناقش فكرة عالمية الأدب ثم تتابعت قوائم رواد هذا العلم الذي غايته البحث في مظاهر التأثير و التأثير بين الآداب المختلفة أيّا كانت مظاهره سواء تعلقت بالأصول الفنية العامة للأجناس الأدبية أو التيارات الفكرية أو اتصلت بطبيعة الموضوعات و المواقف و الأشخاص التي تعالج أو تحكي في الأدب و هو ما دعا إلى وضع عدة مفاهيم لعلم الأدب المقارن مع فوارق بسيطة بينها و من الذين عرفوه نجد "فان تيجم" "Paul Vam Tighem" إذ يقول: "هو دراسة آثار الآداب المختلفة من ناحية علاقتها بعضها ببعض و ما تدين به الآداب بعضها ببعض". بينما يحدد جويارد "Guyard" بقوله: "الأدب المقارن هو تاريخ العلاقات الأدبية العالمية، فالباحث المقارن يقف عند الحدود اللغوية و القومية، ويراقب مبادلات الموضوعات والفكر والكتب والعواطف بين أديين أو عدة آداب."

الأدب المقارن... آلية لفهم الأدب المعاصر

في حين يعرف ألدرج "Aldridge" الأدب المقارن بقوله: "هو دراسة أي ظاهرة أدبية من خلال اتجاهات أدبية وتكوينية أكثر حيوية توجد خارج إطار الأدب القومي". هذا وقد حاول روبرت كليمنس "Robert Clements" أن يحصل مجموعة من التعاريف التي تهدف إلى توضيح مفهوم هذا العلم وخلص إلى القول بأنه من الصعوبة وضع تعريف شامل و دقيق إذ أن تعريف هذا الفن صعب عسير ولكن يمكن وصفه من خلال معرفة مجالات الدراسة فيه. وعموما يمكننا الإشارة إلى بعض رواد هذا العلم وجنسياتهم المختلفة حتى نتمكن من إحصاء تعاريف أخرى تصلح أن تنير لنا الطريق أمام دراساته فمنهم "فرديناند برونيتير" وهو فرنسي الأصل نادى بأهمية الأدب المقارن مشيراً إلى أن الوعي لديهم يزداد كلما قارنوا دبا بآداب واتجه نفس الاتجاه كل من "أبيل فرانسو فيلمان" و "واكيم دوبيللي" وهما فرنسيان أيضاً، أما في ألمانيا فنجد أبرز أعلام هذا العلم ممثلاً في المفكر والمؤرخ الألماني المتوفي سنة 1803م وهو "هيردر" والذي تنبأ ببوادر هذا العلم قبل تنظيره .

أما كل من "بوست فرانسوا" و "جان ماري كاريه" و "فان تيجم" وهم فرنسيون فقد أشاروا إلى كلية الظاهرة الأدبية كما دعا "بوست فرانسوا" إلى استحداث "علم جديد للقيم" مؤكداً على ضرورة تفاعل الآداب فيما بينها وإفادة بعضها في بعض أما في أمريكا فنجد "رينيه ويليك" الأمريكي الأصل حيث وجه نقدا صارما لبعض المفاهيم والإجراءات المنهجية كمثال نقد التفريق المصطنع بين الموضوع والمنهج وكذا المفهوم الميكانيكي للمصادر والتأثيرات و رأى ذات الباحث أنّ تلك الإجراءات قد عقدت الدراسات المقارنة وإذا عدنا إلى الحديث عن الأدب المقارن في الوطن العربي فنشير إلى روجي الخالدي وسليمان البستاني حيث أصدر الخالدي سنة 1904م كتاب "تاريخ علم الأدب عند الأفرنج و العرب و فيكتور هوكو" والذي يعتبر البذرة الأولى في ظهور علم الأدب المقارن عند العرب أما "البستاني" فقد قام سنة 1895م بترجمة إلياذة هوميروس نظماً وهي أيضاً محطة لظهور هذا العلم لكن الظهور المنهجي الدقيق للأدب المقارن كان على يد الباحث محمد غنيمي هلال في كتابه "الأدب المقارن" الصادر سنة 1953م ونذكر بعض الرواد الآخرين من العرب كـ "سعيد علوش" و "حسام الخطيب"

العماري أمحمد

و"عز الدين المناصرة" والذين لهم إسهامات جريئة في تطوير مفهوم علم الأدب المقارن برغم أن جهودهم كانت فردية بخلاف الغربيين الذي تارة كانت جهودهم جماعية حيث أسسوا بعض الجمعيات الوطنية الباحثة في هذا العلم كما وضعوا منابر دراسية خاصة به حيث يعتبر عام 1948 م بداية عصر المؤتمرات و الندوات وإقامة الجمعيات الدولية لتاريخ الأدب المقارن والتي أنشأت على هامشها عدة جمعيات منها "الجمعية الأمريكية والجمعية الفرنسية واليابانية وجمعية كوريا الجنوبية والجمعية البريطانية، وتتصل هذه الجمعيات بالجمعية الأم المتمثلة في الجمعية العالمية للأدب المقارن التي مقرها بالولايات م. أ.

*وضع الأدب المقارن في فرنسا: (الجمعيات، المؤتمرات، المنابر الدراسية)

تعتبر فرنسا بمثابة الوطن الأول الذي ظهرت به أولى الدراسات المقارنة بما تحمله من دلالات اليوم، حيث كانت مسرحا للدراسات الخاصة باللغات الرومانسية التي تفرعت عن اللغة اللاتينية وهي اللغة التي كانت سائدة في معظم دول أوروبا أثناء القرون الوسطى حيث استخدمها المثقفون ورجال العلم وأصحاب الدين وهذا تحت هيمنة سلطة الكنيسة لكن تغير هذا الوضع انطلاقا من اندلاع النهضة الأوروبية وهو سبب يرى فيه المؤرخون المحور الذي جمع دول أوروبا وجعلها تأخذ من بعضها البعض في كل الميادين، أما إذا أردنا تسليط الضوء على حركة بدايات الدراسات المقارنة فيكفي القول أن استقرار الأوضاع السياسية واهتمام ملوك فرنسا وأمراءها إذ شجعوا الأدباء والنقاد حتى جعلوا من باريس عاصمة ثقافية ليس فرنسا فقط بل لكامل دول أوروبا إن أول ما ظهر ذلك الاهتمام كان في القرن التاسع الميلادي حيث أقبل الفرنسيون على قراءة كتاب وضعه "دانتي" وتعرض فيه للمقارنة بين اللغة الفرنسية القديمة واللغة التي كانت سائدة في إقليم البروفينال "provenal" بجنوبي فرنسا ما بين 1100 و1250م، وفي ذلك الكتاب يثني "دانتي" على الشعر البرفرنسالي ويشيد بخصوبته وغناه وتنوع بحوره وأوزانه وتفننه في الصياغة البلاغية، إن كتابه ذلك و المسمى (الانتقال من لغة السوق إلى لغة الفصاحة) هو الأساس الذي اعتمد عليه دارسو الأدب المقارن في فرنسا، وهو ما أسفر عن معارك حامية فيما بينهم فرقتهم

الأدب المقارن... آلية لفهم الأدب المعاصر

قسمين الأول مناصر للقديم يمثل تيار محافظ يطالب بمحاكاة الأوائل من الكتاب الإغريق و الرمان و القسم الثاني مناصر للجديد يطالبون بإنشاء أدب مستقل أصيل لا يقل جزالة عن أدب القدامى، أما سنة 1594 فقد دافع الفرنسي "يواقيم دى بلى" عن مكانة اللغة الفرنسية أمام كل المثقفين الذين اعتبروا اللغة اللاتينية هي اللغة المثلى، وهذا في كتاب سماه "Défense et illustration de langue Française"، ثم أضاف إلى ذلك الكاتب الفرنسي كورني مقال 1660 عن نظرية الوحدات الثلاثية (وحدة الزمان، المكان، الموضوع) سماه "Discours sur les trois unites"، لتتواتر بعد ذلك المؤلفات تارة مؤيدة للقدامى وتارة مزكية للمحدثين، وأخذت فرنسا تقبل تدريجيا فكرة الأدب الذي لا ينتهي لبلد بعينه أو عصر بذاته فاتحة بذلك صدرها لمختلف الآداب حيث دعت "مدام دي ستيل" في كتابها عن ألمانيا سنة 1810 إلى ضرورة تواصل الأمم فيما بينها و من الخير لها الترحيب بمختلف الأفكار، فبدأ يتأثر الأدب بهذه المقولة الاجتماعية حتى وصل الأدب المقارن إلى مرحلة النضج في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر وتكون بذلك وضعه المستقل و مباحثه الخاصة ثم كان فيلمان الأب الروحي للدراسات الأدبية المقارنة انطلاقا من محاضراته المشهورة التي ألقاها بجامعة السربون سنة 1829 بعنوان "فحص الأثر الذي تركه كتاب فرنسا في القرن الثامن عشر على الآداب الأخرى وعلى العقلية الأوروبية"، وما إن حلت سنة 1890م حتى صار الأدب المقارن مادة من مواد الدراسة الأكاديمية في الجامعات الفرنسية ثم سنة 1897 وضعت 1900 كراس للأدب المقارن بجامعة ليون وآخر سنة 1910 بجامعة السربون، و ظهرت بعد ذلك مؤتمرات عالمية تجمع أساتذة الأدب في فرنسا و خارجها حيث بحثوا فيما سعى إذ ذاك بالتاريخ المقارن للآداب، و قد دعوا في ذلك المؤتمر لدراسة التراث الشعبي و الأساطير و الخرافات جنيا إلى جني مع الأدب، كما أكدوا على ضرورة المقارنة بين مختلف الآداب الأوروبية و اعتبروا دراستها مقدمة لدراسة الآداب العالمية الأخرى، ثم توقفت الأوضاع سنة 1940 بعد أن احتلت فرنسا من طرف ألمانيا و توقفت مجلة الأدب المقارن عن الصدور و حلت محلها من سنة 1942 إلى سنة 1946م دورية صادرة عن جامعة كاردف في بريطانيا اسمها "دراسات في الأدب

العماري أمحمد

المقارن"، ثم توالى الإصدارات في سنة 1952 أنشأ كراس في الأدب المقارن في جامعة ليل و أخرى سنة 1951 بجامعة كلير مونت فراند. ثم انتعشت حركة الأدب المقارن ببعض دول إفريقيا فبعد سنة 1966 ظهرت مجلة للأدب المقارن بالجزائر اسمها: كراسات جزائرية في الأدب المقارن و منذ سنة 1954 حتى الآن تجتمع الجمعية الفرنسية للأدب المقارن مرة كل سنة وهي تعقد مؤتمرها في مناطق مختلفة من فرنسا بالتناوب.

-وضع الأدب المقارن في البلاد العربية:

الواضح أنّ ظهور الأدب المقارن لم يكن بالبلاد العربية بل كان بأوروبا ثم إنّ الدراسات الأكاديمية من الولايات المتحدة الأمريكية إلى دول أوروبا هي بالتأكيد سعي نحو ضبط مفاهيم هذا العلم و تطويره فأين يمكن أن ندرج جهود الدول العربية في الدراسات المقارنة؟

لقد تحدثنا عن ظهور الأدب المقارن بالوطن العربي حيث اتفق أغلب الدارسين على أن كتاب "الأدب المقارن" لمحمد غنيمي هلال هو أول كتاب في الدب المقارن في الأدب العربي و هذا سنة 1953، و حتى نتحدث عن وضع الأدب المقارن في البلاد العربية نرى انه من الضروري المرور إلى تحديد بعض مجالات الدراسة المقارنة و في مقدمتها دراسة على مستوى الموضوعات الأدبية مثل دراسة موضوع الشيطان في الأدب العربي الفرنسي، أو دراسة تأثير كاتب ما في أدب أمة أخرى و هذا في مختلف المستويات تأثير مسرحيات شكسبير على الأدب العربي.

ثالثا: دراسة مصادر الكاتب: و معناه البحث عن المصادر الأجنبية التي استقى منها الكاتب عناصر إبداعه مثل الأفكار والصور والتعبيرات ، مثل دراسة المصادر النقدية والفكرية الانجليزية والفرنسية التي اعتمدت عليها مدرسة الديوان(العقاد، المازني، شكري)

رابعا: دراسة التيارات الفكرية: و نعني به دراسة الأفكار العامة التي تسود عصرا بعينه أو بلادا بعينها و تؤثر في الإبداع الأدبي كمثال تأثير الفلسفة الصوفية في الأدبين العربي والفارسي.

الأدب المقارن... آلية لفهم الأدب المعاصر

خامساً: دراسة صورة بلد ما في أدب أمة أخرى: وهذا يعني دراسة الصورة التي ينقلها مؤلف بعينه أو أدب بعينه عن بلد آخر، وذلك من خلال المعاينة المباشرة لذلك البلد كمثل دراسة صورة إسبانيا في أدب العرب منذ دخول العرب إلى الأندلس.

إن ما يشير إليه الدرج من اهتمام بعلاقة الشرق بالغرب لدى الدارسين الأسيويين هو مما تعززه الشواهد الكثيرة في ذات الكتاب، خاصة في المراحل الأولى من دخول ذلك الحقل إلى ما يعرف بدول العالم الثالث، ففي العالم العربي جاء الاهتمام بالأدب المقارن ضمن الحركة النهضوية في مطلع هذا القرن التي كان في طليعة اهتماماتها تعميق الصلة بالثقافة الغربية والاستفادة منها.

لقد ظلت المؤلفات العربية في هذا الحقل، وطوال العقدين أو الثلاثة الماضية واقعة في مجملها تحت طائلة التأثير الغربي سواء من الناحية المنهجية أو التطبيقية بيد أن نوعاً من الاستقلال بدا يظهر في السنوات الأخيرة في مؤلفات عدد من المقارنين العرب، خاصة بعد أن شعر الباحثون العرب بتشكل تجربة عربية متنامية في المقارنة حيث وضعت الأسس، وسمحت بالتوسع والانفتاح على مصادر منهجية وتطبيقية خارج أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، قال ماجو مدار "إن الاهتمام بالأدب المقارن في الهند ودول العالم جاء ليعزز من الاهتمام بالأدب الوطني، وذلك على عكس التوجه المنهجي للمقارنة في الولايات م.ا خاصة".

*مدارس الأدب المقارن وبعض قضايا النظرية من خلال النقاشات التي دارت بين مدارسها:

أ - المدرسة التاريخية (الفرنسية)

ب - المدرسة النصية (الأمريكية)

ج - المدرسة السوسولوجية.

من المؤكد اليوم إن علم الأدب المقارن لم يكتمل في جوانبه النظرية و التطبيقية، بل لا يزال حقلاً خصباً للممارسات الفاعلة الساعية نحو جعل تنظيراته أدوات حفر من شأنها كشف المزيد من الحقائق العلمية حول تفاعل الآداب وتأثرها ببعضها البعض على مر العصور

العماري أمحمد

و الواضح إن ما وصل إليه هذا العلم من هذا العصر لا يرجع الفضل فيه إلى الجامعات الفرنسية لوحدها باعتبار إن غالبية النقاد و المؤرخين يقرون بأن فرنسا هي الرحم الذي ظهر فيه علم الأدب المقارن، بل إن وضع الأدب المقارن في العالم اليوم هو ثمرة تعاون مختلف الجامعات مع رجالات الفكر و فلاسفة الفن و نقاد الأدب حيث أرسيت جذوره و فكت عثراته التي كانت تعيق خطاه إذ أصبح النقاد اليوم يطمئنون إلى نتائجهم و يقرون بنظرياتهم.

و مع ذلك فانه لا تزال بعض الاتجاهات المختلفة في الدراسات المقارنة نتائج ما افرز منذ البداية من توجهات خاصة شكلت بدورها مدارس مختلفة وفي مقدمتها المدرسة الفرنسية أو ما يسمونها بالتاريخانية و المدرسة الأمريكية أو ما يسمونها بالنصية ثم المدرسة السوسيولوجية إذ عينت كل واحدة ببعض فروع الأدب المقارن أكثر من عنايتها بفروع أخرى كما وجهت بعض النقد لكل مدرسة و هو ما يمكن معالجته من خلال الوقوف عند كل مدرسة.

1) المدرسة التاريخانية (الفرنسية): إن الإشارة إلى المدرسة الفرنسية لا يعني التوقف عند الحدود السياسية لفرنسا ذلك إن هذه المدرسة و التي أحب بعض النقاد بتلقيها بالمدرسة التاريخانية و هي اتجاه في الدراسات المقارنة خلق له أتباعا بعضهم فرنسيين والبعض الآخر ليسوا كذلك بل حتى إن هناك من الأتباع من هم أمريكيون أما عن أسباب ظهور هذا التيار الفرنسي فتتعلق بالفضاء الاستراتيجي المتميز الذي عاشته فرنسا في تلك الفترة مما جعلها ملتقى للتيارات و هو ما خدم البحث المقارن بفرنسا على عكس الدراسات الألمانية التي تشبعت بالروح النقدية و فترتها لها التراكمات الفلسفية التي ظهرت بها. هذا وقد اتضح اتجاه المدرسة الفرنسية مع ظهور أول كراس للدراسات المقارنة و أول مجلة للأدب المقارن و أول مقال حول "الكلمة والشيء" و ترجم هذا الظهور عملية تركيبية لكثير من الإرهاصات أدت إلى ظهور أعلام للدرس المقارن حيث نظر لعلم الأدب المقارن في الإطار الفكري للمجتمع الفرنسي فنعكس مراحل من المعالجات الأدبية المتعثرة و الرائدة، و لعبت فكرة الجيل دورها البارز في بلورة مفهوم المدرسة الفرنسية

الأدب المقارن... آلية لفهم الأدب المعاصر

التي عبرت عن استمرارية و تطوير الأدوات والمناهج مع الجيل الثاني⁽¹⁾ الذي استلم من الجيل الأول⁽²⁾ معالم هذا العلم حيث خلفوهم وعقبوهم في كراسي الدراسات المقارنة وإدارة مجلة "الأدب المقارن لا" كما اتخذوا هدف المدرسة نصب أعينهم إذ ألفوا كتباً علمية جامعية و أصبح هذا العلم كيانا قائماً مع الجيل الثالث⁽³⁾ ، وبذلك تتحقق وتتأكد تاريخية هذه المدرسة عبر توزيع مجالات العمل و تطوير المناهج والمقاربات ولعل هذا ما جعل بعض النقاد يصطلحون على هذه المدرسة اسم المدرسة التاريخية والواضح أن لظهور هذا الاتجاه بدايات ثم تطورت هذه البدايات إلى أن وضعت المعايير والأسس والمميزات التي تبني خصوصية هذه المدرسة.

(1) بدايات ظهور المدرسة التاريخية (الفرنسية):

لعل مما تميز به العدد الأول من مجلة "الأدب المقارن" الفرنسية التي طبعت سنة 1921 هو ذلك المقال الذي اشرنا إليه سابقاً و الذي كان تحت عنوان "الكلمة الشيء" لصاحبه "فرديناند برونيتير" إذ اعتبر أول عمل تنظيري يعكس بصمات توجه المدرسة الفرنسية حيث كشف المقال إن استعمال "سانت لوف" لتسمية "الأدب المقارن" سنة 1962 لم يكن إلا خدمة و إساءة للدراسات المقارنة في الوقت نفسه وهذا من باب أن تلك التسمية قد جاءت تشكل مصطلحاً سهلاً في الدراسات النقدية داخل الوسط الثقافي حيث تشير إلى نوع من التسلية في المفاضلة بين الأعمال.

(1) - أمثال الجيل الأول: برونيتير، سانت بيف، فرانسو فيلمان....

(2) - أمثال الجيل الثاني: مارسيل باطيون، جان ماري كاري، جاك فوازين....

(3) - أمثال الجيل الثالث: كلوديشوا، سيمون لوجون، انيال هنري....